﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٧٨﴾ [القصص: 78]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

كـفرانُ النِّعمة يجلبُ المساءةَ والنِّقمة

لمّا وُعظ الهالك ونُدب إلى اتّقاء الله تعالى في المال الَّذي أعطاهُ تفضُّلًا منه عليه؛ أخذتْه العزَّة بالإثم فأُعجبَ بنفسه، وقال لهم على جهة الردِّ عليهم والرَّوغان عمّا ألزموه به: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾[1]؛ وهو قولٌ يدلُّ على أنَّه مغرورٌ مطموسُ البصيرة، نسي مصدرَ النِّعمة، وتنكَّر لصاحب الفضل، وكفرَ بمَن يستحقُّ الشكر؛ فجاءه التَّوبيخ من جهة الله تعالى على اغتراره[2]، وأنَّه كان ينبغي عليه أن يعرف أنَّ الله أهلكَ من قبله أجيالًا كانت أشدَّ منه قوةً وأكثرَ مالًا، ثمَّ أخبر سبحانه بأنَّ قارون وأمثالَه من المجرمين أهونُ مِن أنْ يسألهم عن ذنوبهم، فليسوا هم الحكمَ ولا الأشهاد!

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَهۡلَكَ﴾: أصلُ (هلك) يدلُّ على كسرٍ وسقوط[3]. وهلكَ الشَّيءُ يهلِكُ هلاكًا وهُلوكا ومَهلَكًا ومَهلِكًا ومَهلُكًا، وتَهلُكة، والاسم منه الهُلْك[4]. وأهلَكه غيرُه، واستهلكَه بمعنًى واحد[5]. وقد يقال: هلَكَه بمعنى أهلكَه[6]. وجمعُ الهالك: الهَلْكَى والهُلّاك وهالكون[7].

(1) ابن عطيَّة، المحرر الوجيز: 4/ 300، والبقاعي، نظم الدرر: 14/ 354.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 7/ 25.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (هلك).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (هلك).
(5) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (هلك).
(6) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (هلك).
(7) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح: (هلك).

والهُلّاك أيضًا: الصَّعاليكُ الّذين ينتابونَ النّاس طَلَبًا لمعروفهم من سوءِ الحال[1]. والهَلَك: الشَّيء الذي يهوي ويسقُطُ، والتَّهلكة: الهلاك، وكلُّ شيءٍ تصير عاقبته إلى الهلاك[2]. والاهتلاك: رميُ الإنسان بنفسه في التَّهلكة[3]. وقد يُطلَقُ الهلاك على العذاب[4]، ومنه قولُه تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ﴾؛ أي: أهلكَهم بالعذاب[5].

2) ﴿ٱلۡقُرُونِ﴾: أصلُ (قرن) يدلُّ على جمعِ شيء إلى شيء[6]، قرنتُ الشَّيء بالشَّيء: وصلتُه به[7]. والاقترانُ كالازدواج في كونه اجتماعَ شيئينِ أوْ أشياءَ في معنى من المعاني؛ كقوله تعالى: ﴿أَوۡ جَآءَ مَعَهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مُقۡتَرِنِينَ ٥٣﴾ [الزخرف: 53][8]. وفلان قَرنُ فلانٍ في الولادة وفي السِّن، وقرينُه وقِرنُه في الجلادة وفي القوَّة وفي غيرها من الأحوال؛ أي: مثلُه[9]. وجمع القرين: قُرَناء[10]. والقَرنُ من النّاس: أهلُ زمان واحدٍ؛ لأنَّهم مُقتَرِنون في زمانٍ واحد، فاشتقاقه من الاقتران، وجمعه: قُرون[11]. والمراد بإهلاكِ القرون في الآية: أهلُ الأزمنة الّذين عاشوا وجمعَهم الزمانُ فصاروا مُقترنينَ به.

3) ﴿أَشَدُّ﴾: أصلُ (شدد) يدلُّ على قوَّةٍ في الشَّيء[12]. والشَّدُّ: العقدُ القويُّ والإيثاق والإحكام. يقال شَدَدْتُ الشَّيءَ: قوَّيتُ عقدَه وأوثقتُه، وشدَّ عضُده: قوّاه. قال اللّه تعالى: ﴿وَشَدَدۡنَآ أَسۡرَهُمۡۖ﴾ [الإنسان: 28][13]. والشِّدّةُ تُستعمَل في العَقد، وفي البدن، وفي قوى النَّفس، وفي

(1) الأزهري، تهذيب اللغة: (هلك).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (هلك).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (هلك).
(4) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (هلك).
(5) القرطبي، أحكام القرآن: 13/ 316.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قرن).
(7) الجوهري، الصحاح: (قرن).
(8) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (قرن).
(9) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات: (قرن).
(10) الراغب، المفردات: (قرن).
(11) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (قرن).
(12) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شدد).
(13) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (شدد).

العذاب[1]. وتكون بمعنى: القوَّةِ والجلادةِ[2]، والصَّلابةِ - وهي نقيضُ اللّين -[3]، والنَّجدةِ، وثباتِ القلب[4]. وشيءٌ شديد: بَيِّن الشِّدَّة، وشيءٌ شديد: مُشْتَدٌّ قويّ[5]. والشَّدَّةُ: الحَملةُ الواحدة. وقد شدَّ عليه في الحرب يَشُدُّ شدًّا؛ أي: حمَلَ عليه[6]. ورجلٌ شديد: شجاعٌ، وكذلك الرَّجل القويُّ، وجمعه: أشِدّاء وشِدادٌ وشُدُد[7]. ويقال: شدَّ اللّه مُلكَه وشدَّده؛ أي: قوّاه[8]. وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ [الأنعام: 152]؛ أي: قوَّته[9]. والأشُدُّ: مبلغُ الرَّجل الحِنكةَ والمعرفة[10]. والمرادُ به في الآية: الأكثرُ مالًا وذكاءً وقوّةً وصلابةً.

4) ﴿ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾: أصلُ (جرم) يدلُّ على معنى القطع[11]. والجَرْم: القَطْعُ. وجَرَمَ النخلَ يجرِمُه جَرْمًا، واجْتَرَمه يجْتَرِمه اجترامًا: قطعه[12]. والجريمة والجُرم: الذَّنبُ والتَّعدّي. يقال: جرَمَ وأجرمَ جُرمًا وإجرامًا: إذا أذنبَ، وصارَ ذا جُرْم. والجارمُ: الجاني، والمجترمُ: المذنبُ[13]. واستعيرَ ذلك لكلِّ اكتسابِ مكروهٍ[14]. والمراد بهم في الآية: المذنبونَ والعصاةُ الّذين يقطعونَ ما ينبغي وصلُه ويصلونَ ما ينبغي قطعُه[15].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يُبيِّنُ السّياقُ القُرآنيُّ في هذه الآية الكريمة جوابَ قارون لقومه الَّذين نصحوه وأرشدوه إلى فعل الخير، وتركِ ما هو عليه من الإثم والشَّرّ، فيقول - حكايةً عنه -: قال إنَّما أُعْطيتُ هذه الأموال وهذه الكنوز لفضلِ علمٍ عندي قد اختصَّني اللّه به، وفضَّلني

(1) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (شدد).
(2) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (شدد).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (شدد).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة: (شدد).
(5) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (شدد).
(6) الجوهري، الصحاح: (شدد).
(7) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (شدد).
(8) الجوهري، الصحاح، والسمين الحلبي، عمدة الحفّاظ، وابن منظور، لسان العرب: (شدد).
(9) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (شدد).
(10) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (شدد).
(11) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (جرم).
(12) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن فارس، المجمل، والزبيدي، تاج العروس: (جرم).
(13) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، والزبيدي، تاج العروس: (جرم).
(14) الراغب، المفردات: (جرم).
(15) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 355، 356.

به عليكم، فقال الله سبحانه رادًا عليه هذا الادِّعاء: أوَ لم يعلم هذا المغرورُ بقوَّته وكثرةِ ماله أنَّ الله قد أهلكَ مِنْ قبله مِنَ الأمم الخالية مَنْ هو أقوى منه بدنًا وأكثر مالًا؟ ولا يُسْأَلُ عن ذنوبهم المجرمون عند إهلاكهم سؤالَ استعتاب واستعلام؛ لأنَّ الله سبحانه لا يخفى عليه شيءٌ من أمرهم، ولوضوحِ جُرمِهم وظُهوره، وإنما يُسْألونَ سؤالَ توبيخٍ وإفضاحٍ لسوءِ جُرْمهم وعظيمِ إثمهم[1].

غـرورُ المعجَبين من المُتْرَفين أكبرُ جُحودٍ لنعمةِ ربِّ العالمين

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصلِ الآية عن سابقتها:

فُصِل قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ﴾ عن سابقِه؛ لوقوعه جوابًا من قارون عن موعظةِ واعظيه مِن قومِه، وقد جاء على أسلوبِ حكايةِ المحاورات فلم يُعطَف على سابقِه، ذلك أنَّ في المحاورات بين الطَّرفين ينشأُ بعد كلِّ قولٍ سؤالٌ عمّا أجاب به الطَّرفُ الآخر، تقديرُه: (فماذا قال؟) أو: (بِمَ أجاب؟)، فالاستئنافُ بيانيٌّ لشبه كمال الاتصال. وهو جوابُ متصلّفٍ حاول به إفحامَهم، وقطعَ موعظتهم؛ لأنَّها أمرتْ كبرياءه وبطَرَه وازدهاءَه[2].

مـــن شـــأنِ المـستـكـبريـن الـصّـلـفُ في جوابِ الواعظين

بلاغةُ استعمالِ القصر بـ﴿إِنَّمَآ﴾:

قوله: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ﴾ يفيدُ القَصْرَ والحَصْرَ؛ إذ عُبِّر بأداته المركَّبة مِن (إنَّ) و(ما) الكافَّة مُصيِّرتَيْن كلمةً واحدة، وهي التي حقُّها أن تُكتب موصولة النّون بميم (ما). والمعنى: ما أوتيت هذا المال إلّا على عِلم عَلِمتُه. وضميرُ ﴿أُوتِيتُهُۥ﴾ عائد إلى (ما) الموصولة في قولهم: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ [القصص: 77][3]. وفيه جحودٌ لفضل الله عليه وكفرانٌ لنِعَمِه، فكأنَّه قابلَ

دعـــــوى الاستـحـقـاق جـحـودٌ وكـفـرانٌ بالرَّزّاق

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 228 - 229.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 180.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 180.

قولَ ناصحيه في موعظتهم إيّاه لمّا ذكَّروه بفضل الله عليه بقولهم: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ [القصص: 77]، وقولهم: ﴿وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ﴾ [القصص: 77] - بإنكار ذلك فقال: لم يُحسنِ الله إليَّ ولم يُؤتني تفضُّلًا وإنَّما هو علمٌ عَلِمتُه وحقٌّ اكتسبتُه. وأمّا عن سرِّ إيثار القَصْر بـ﴿إِنَّمَآ﴾ دون غيرها من أدوات القصر، فلأنَّ القصر بـ(إنَّما) يكون لما هو ظاهرٌ ممّا لا ينكرُهُ المخاطَب، أوْ ما نُزِّل هذه المنزلة؛ نحو: ﴿إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ ١١﴾ [البقرة: 11]، ويحسُنُ وقوعُها في التَّعريض؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩﴾ [الرعد: 19][1].

فالّذين نصحوا قارون لم ينكروا أنَّه ذو حظٍّ عظيم من المال، ولم ينكروا أنَّه أوتي علمًا، فكأنَّه أراد أنْ يثبتَ ذلك لهم أوْ يذكِّرهم به، أو يعرِّض بهم من حيث إنَّهم ليس لديهم من العلم ما كان لقارون. وهذه النَّظرة الضِّيّق أُفُقُها لا تكون إلّا ممَّن أغشتِ الدُّنيا بصرَه، وأعمتْ بصيرته، فراح يجحدُ الحقائق، ويَعمى عن الدَّقائق.

دلالة التَّعبير بالإيتاء مادّةً:

الإيتاءُ إعطاءٌ بقوّة وثبوتٍ واستحقاق

أصلُ (الإيتاء) يدلُّ على مجيء الشَّيء وإصحابه، فهو وُصولٌ أوْ تقدُّمٌ وحضورٌ إلى مكانٍ أوْ شيءٍ بتهيئةٍ أوْ قوَّةٍ تزيلُ ما يعوق. وآتى إليه الشَّيءَ: ساقَه ودفعَه وجعلَه يأتي إليه. وآتى فلانًا شيئًا: أعطاه إيّاه. وأصلُ ذلك إحضارُ الشَّيء ودفعُهُ إلى المؤتَى[2]. والإيتاءُ أقوى من الإعطاء في الاستعمال القرآني؛ لأنَّ الإيتاء في أكثر المواضع فيما له ثباتٌ وقرار، كالحكمة والسَّبع المثاني، والمُلك الذي لا يؤتى إلا لذي قوَّة. والإعطاء: فيما ينتقلُ بعدَ قضاء الحاجة منه؛ كإعطاء كلِّ شيء خَلْقَه لتكرُّر حدوث ذلك باعتبار الموجودات، وإعطاء الكوثر للانتقال منه إلى ما هو أعظم منه، وكذا ﴿يُعۡطِيكَ رَبُّكَ

(1) السامرائي، معاني النحو: 2/ 250 - 251.
(2) ابن فارس، المقاييس، والراغب، المفردات، وجبل الاشتقاقي: (أتى).

﴿فَتَرۡضَىٰٓ ۝٥﴾ [الضحى: 5] للتَّكرُّر إلى أن يرضى كلَّ الرِّضا[1]. كما أنَّ إيثارَ التَّعبير بالإيتاء فيه إشارةٌ لمعنى الاستحقاق والكسب، بخلاف العطاء الذي قد يكونُ محضَ منَّة. وفيه دلالةٌ أيضًا على سهولةِ حصول ذلك المال المؤتى، حتى إنه لم يحتجْ إلى جهدٍ في تحصيله، فقد أتاه بكلّ يسرٍ وسهولة.

دلالةُ التعبير بالإيتاءِ صيغةً:

اطمأنَّ بما لديه فجحدَ نعمةَ الكريم عليه

واختار التعبيرُ بصيغة الماضي في قوله: ﴿أُوتِيتُهُۥ﴾ يدلُّ على تحقُّق الحصول على المال، واستقرارِ ذلك له ممّا جعله يطمئنُّ به ويركنُ إليه ويطغى ذلك الطُّغيانَ. فهو إنَّما يتكلَّم بلسان الآمِن على المال الذي هو مستقرٌّ عندَه، لا بلسان الخائف من ضياعه المتوقّع عدمَ حصوله. ثمَّ اختار النظم الجليل صيغة الفعل المبنيّ للمفعول فقال: ﴿أُوتِيتُهُۥ﴾، ولم يُسَمِّ فاعله إشارة إلى جحود فضل المنعِم عليه بهذا المال، أو عدم الاهتمام بالفاعل للإيتاء، ولتحقيق مأرب عميق يتمثل بجهله بفاعل الإيتاء إنكارًا منه لنعمة الله عليه واستكبارًا في الأرض، فلم يقل: (إنما آتاني الله الأموالَ لعلمي).

نكتةُ التَّعبير بضمير الغائب في ﴿أُوتِيتُهُۥ﴾:

معاملةٌ بعيدِ المرامِ مُعاملةَ الغائب عن مقام الكلام

ضميرُ الغائب يستعملُ للدَّلالة على شخصٍ أوْ شيءٍ غير حاضرٍ في مشهَد الحوار، ويفيدُ الإبهامَ المناسبَ للتكثير المقصودِ من السّياق، فالإشارة إلى المال بضمير الغائب هنا للدَّلالة على إبهام المال لبيان اتّساعه وكثرتِه، حتى إنّه لا يُحصَر بالمشاهدة، ويجلُّ عن الحضور! وفيه إيحاءٌ أيضًا ببُعد حصول مثل ذلك المال للمخاطَبين، الّذين كانوا ينصحون قارون، تأكيدًا على إرادته بيانَ اختصاصِه بالمالِ واستحقاقِه له بعلمه وخبرته دونَ غيرِه.

(1) الكفوي، الكليات، ص: 212.

دلالة ﴿عَلَىٰ﴾ في قوله: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾:

رسـوخُ الاستحقاق عنده أعمى البصيرةَ في قلبه

الأصلُ في ﴿عَلَىٰ﴾ أنَّها موضوعة للدَّلالة على الاستعلاء، حقيقيًّا كان أم مجازيًّا، وهي في قوله: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ تدلُّ على الاستعلاء المجازيّ؛ لأن العلم ليس مكانًا يرتقى عليه، فأرادَ معنى التَّمكُّن والتَّحقُّق من العلْم حتى كأنَّه صار فوقَهُ مُهيمنًا؛ أي: ما أوتيتُ المال الذي ذكرتموه في حالٍ من الأحوال إلّا في حالِ تمكُّني مِن عِلْم راسخ[1]. وتحتمل على كونها دالة على معنى التَّعليل، فكأنَّه قال: إنما أوتيته لأجل علم عِنْدي[2]. وعلى كلا المعنيين فإنَّ من شأن المتكبّرين رسوخَ اعتقادٍ لديهم أنَّ ما يحصلونَ عليه من نِعَم وهِبات أنَّها مستحقّةٌ لا فضلَ لأحدٍ عليهم بها، بل وصلَ الأمر بقارون أنْ يدّعيَ أنَّ علمَه وخبرته وذكاءه كانت الأسبابَ الحقيقيّة والتامة في تحصيل تلك الأموال بلا نعمةٍ من اللّه عليه ولا تفضُّل.

نكتةُ تنكير ﴿عِلْمٍ﴾:

جهالةُ المغرورين بأنفسهم قائدُتُهم إلى الضَّلال المبين

أفادَ التَّنكير في كلمة ﴿عِلْمٍ﴾ من قوله: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ إلى تعظيم قارون لهذا العلْم الذي امتلكَه واختصّ به ونالَه عن جدارةٍ واستحقاق، ممّا يفسر لنا سببَ اعتدادِه به، ونسبته الفضلَ إليه مع جحود فضل اللّه عليه. فكأنَّه قال: ما أوتيت هذا المالَ العظيم إلّا لأجلِ تمكُّني من عِلمٍ عظيم، ولولا هذا العِلمُ العظيم لما كان هذا المالُ العظيم الذي ترونَ جزءًا يسيرًا منه، ففي البهمة إشارةٌ إلى كثرة ذلك العلم الذي يستحقّ التفاخرَ به، وهذا من جهلِ المغترّين الّذين يَنسبونَ العلمَ لأنفسهم، وينسَون أنّ علْمَهم وذكاءَهم منحةٌ إلهيّةٌ وفتنةٌ ربانيّةٌ، تستوجبُ الشكر والخضوع والأدب مع واهبِ العلوم ومُعطي النّعَم.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 181.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 319.

دلالةُ الوصف بالظرف ﴿عِندِيٓ﴾:

المستكبرونَ يتوهّمونَ امتلاكَ ناصيةِ العلْم

وردَ في النّظم الجليل قوله: ﴿عِندِيٓ﴾ صفةً لـ﴿عِلْمٍ﴾؛ تأكيدًا على تمكُّنه مِن العِلْم، وشُهرتِه به[1]؛ وفي العنديَّة معنى الثَّبات والاستقرار والقُرب؛ فكأنَّ علمًا عظيمًا قد حازه بحذافيره، ولم يكنْ نعمةً عليه وتفضُّلًا، فهو يُرجِعُ الأموالَ التي حصل عليها إلى العلْم، والعلْمُ في حدِّ ذاته لدنيٌّ فيه، ونفى بذلك أيَّ فضلٍ من الله تعالى عليه، وهو منتهى الجحودِ والاستكبار والنُّكران. كما أنَّ الظرف مفيدٌ للاختصاص، فكأنَّه قال: إنَّما أوتيت هذا المال لأجلِ عِلْم قريبٍ مختصٍّ بي دونَكم[2]، وبذلك يتحوّل العلمُ إلى ذاتٍ متجسِّمةٍ جلسَتْ عنده ولم يكن للغير نصيبٌ منها.

علَّة الوصل في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ﴾:

دفعُ الإيهام من محسّنات الكلام

(الواو) في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ﴾ للعطف على جملة: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ﴾، والجملتانِ وإنِ اختلفَتا خبرًا وإنشاءً لفظًا ومعنى، لكنَّ القطعَ يوهمُ خلافَ المراد؛ وهو المسمَّى عند البلاغيين بـ(كمال الانقطاع) مع الإيهام، والجملة اعتراضيةٌ بينَ أجزاء القصّة للردّ[3]، والغرضُ من العطف بيانُ أنَّ ادّعاءَه امتلاكَ المال عن علمٍ عزيزٍ استأثرَ به يَستدعي أنْ يكون عالمًا بما جرى للسّابقين المغترِّين بقوَّتهم وأموالهم، وكيفَ دمّر الله عليهم واستأصلَهم! إذ العلمُ الذي اختصَّ به وجمعَ له هذه الأموالَ الطائلةَ يستلزمُ علمَه بما جرى لأهل القرون الماضية من المتكبّرين. أو (الواو) في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ﴾ للعطف على مقدَّر محذوف من النظم؛ أي: (ألم يَقرأ في التَّوراة)، أو: (ألم يَسمع مِن الحفّاظ، ولم يعلم... إلخ).

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 182.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 319.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 182.

دلالة الاستفهام في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ﴾:

التعجيبُ من ادّعـاء العلم وهو بمعزلٍ عن إدراك الظَّواهر

(الهمزة) في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ﴾ للاستفهام التَّعجيبيّ؛ من عدم جرْيِه على موجب علمه - إذ ادَّعى العِلمَ وتمكُّنَه منه - ولم يعلم أنَّ اللّه أهلكَ أُممًا على بَطَرِهم النِّعمةَ وإعجابِهم لقوَّتهم، ونسيانِه حتَّى صار كأنَّه لم يعلمْه؛ تعجيبًا من فواتِ مراعاة ذلك منه مع سعةِ علمه بغيره، وذلك من باب: (حَفِظتَ شيئًا وغابَتْ عنكَ أشياءُ)[1]. فهو ردٌّ لادّعائه العِلم وتعظُّمه به بنفي العِلم المهمّ عنه؛ أي: أعندَه مثلُ ذلك العِلم الذي ادَّعى ولم يعلم هذا حتَّى يقيَ نفسَه مصارعَ الهالكين[2]؟ ويجمل الاستفهامُ عن العلْم بعدَ ادّعائه، إذ كيف يليقُ ذلك الادّعاء مع الجهل بأبسطِ الحقائقِ وأيسرِها.

دلالةُ التَّعبير بالعِلم مادّةً وصيغةً:

العِلْم إدراك الشَّيء بحقائقه

عبّر النظم الجليل بمادّة العِلم في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ﴾ للتوبيخ والتهكُّم؛ إذ ادَّعى قارونُ العِلم ونسبَ إليه الفضلَ في حصول المال، فكان الجواب: ألم تعلمْ على علمكَ الذي زعمتَ أنَّ اللّه قد أهلك من قبلك مَن كفرَ نعمتَه وطغى؟ أفعَلِمتَ العِلم الذي اكتسبتَ به المال وغابَ عنك العِلم الذي يحفظه ويحرسُه منَ الهلاك؟ ولمّا كان العِلم إدراكَ الشَّيء على حقيقته كان في السُّؤال عن ذلك إشارةٌ إلى أنَّ قارون قد علمَ ظاهرًا من الحياة الدُّنيا، وغابتْ عنه حقائقُ الأشياء! وقد أوثر في صياغته الفعلُ المضارع للدَّلالة على التَّجدُّد والاستمرار في انتفاء علمه بالحقائق، لأنه الذي يحصلُ بالتَّدبُّر والتَّفكُّر مرَّة بعد مرَّة، والتَّروِّي في دلائله كرَّةً بعد كرَّة.

نكتة توالي المؤكِّدات:

اشتملت الجملة الواردة في قوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 182.

(2) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 8/ 58.

قَبۡلِهِۦ﴾ على عديد من المؤكّدات، هي: دخولُ ﴿أَنَّ﴾ على الجملة الاسميَّة، التي تقومُ مقامَ تكرار الجملةِ مرَّتين، ودخولُ حرف التَّحقيق ﴿قَدۡ﴾، ومجيءُ المسند فعليًّا ﴿قَدۡ أَهۡلَكَ﴾ الدالّ على تقويةِ الخبر وتوكيدِه، ولمّا كان ردُّ قارون على الناصحينَ: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾ مُتضمّنًا جحدًا وإنكارًا ناسبَه توكيدُ متعلَّقِ علمِه بما جرى للسّابقين من الطُّغاة بهذه المؤكّدات المتوالية، فقد كان ظاهرُ حالِه وكلامِه مُنكرًا عقابَ الله تعالى إنْ جَحَدَ فضله وكفرَ نِعمتَه؛ ولذا نُزِّل منزلةَ المنكِر الجاهلِ المنفيِّ عنه العلم بذلك، لعدمِ عمَله بمقتضى علْمِه حتى صار كأنّه غيرُ عالم به.

تأكيدُ الخبر مجابهةٌ لإنكاره ودحضٌ لشَكِّه وتَرَدُّده

سرُّ إيثار التَّعبير بعنوان الألوهيَّة:

عبّر النظم بالاسم الجليل في قوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ﴾ الدّالِّ على كلِّ الأسماء والصفات؛ لأنه علمٌ على الذات المستجمعِ لجميعِ صفاتِ الكمال والجلال، للدلالة على شدَّة ذلك الإهلاك، وأنَّه قد بلغ غايةً تربو على كلِّ تصوُّر. فالتَّعبير بالألوهيَّة في مقام التذكير بالعظمة وعموم القدرة يورثُ المهابةَ في النُّفوس، ويربّي الخشية في القلوب، ولم يعبّر بلفظ الربوبيَّة المناسبةِ لمقام النِّعمة والمنَّة والحفظ، والمقامُ مقامُ تذكير بالإهلاك والتدمير.

التَّعبيرُ بالألوهيَّة عندَ التذكير يورثُ الرَّهبة في النُّفوس

نكتةُ التَّعبير بالمسند الفعليّ ماضيًا:

عبّر النظمُ بالمسند الفعليّ الماضي في قوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ﴾ لإفادة تقويةِ الحكم عن طريقِ تكرُّرِ الإسناد، ذلك أنَّ الفعل ﴿أَهۡلَكَ﴾ خبر مسندٌ إلى الاسم الأجلِّ، وهو أيضًا متضمِّنٌ ضميرًا فاعلًا قد أسند هو إليه، فكأنَّ الإسناد قد كُرِّر مرَّتين، ولذا كان مفيدًا لتقوية الحكم وتوكيده[1]. واختيرت صيغة الماضي أيضًا للدلالة

إنكارُ المنكرينَ جهلٌ منقطعُ النَّظير

(1) حسن طبل، علم المعاني، ص: 125.

على تحقق الوقوع والجزم به فلا سبيلَ لإنكارِ ما جرى والشكِّ في وقوعه، وقد ناسبتْ تقويةُ الإسنادِ إرادةَ التَّوكيد؛ لأنَّ قارون كان كالمنكِر لما وُجِّه إليه مِن نُصح وتذكير.

سرّ التعبير بالجارّ والمجرور الأوّلين:

مـــن عـــادة المتكبّرين عدمُ الاتّعاظ بهلاكِ المتقدِّمين

عبّر النظم الكريم بالجارّ والمجرور في قوله تعالى: ﴿أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ﴾ والمتكون من ﴿مِن﴾ الموضوعةِ للدَّلالة على ابتداء الغاية[1]، ولفظ (القَبل) الدالِّ على الأسبقيَّة والتقدُّم، ومعناهما هنا: أنَّ ابتداء الإهلاك كان واقعًا في زمانٍ قبل زمن قارون، أي: إنَّ هذه القبليَّة جُعِلت مبتدأً للإهلاك، فتشمل كلَّ ما سبق زمانَ قارون، وهذا هو الشَّأن منذ القديم ابتداءً من السّابقين على قارون إلى الأقدم[2]. وفي إدخالِ ﴿مِن﴾ دونَ الاكتفاء بالقبليّة تنبيهٌ على أنَّه لم يتَّعظ من مشاهدتِه للمهلَكين الموصوفينَ مع قرب الزَّمان منه، ولو حُذِفت ﴿مِن﴾ لاستغرقَ الإهلاك على ذلك الوصف جميعَ ما تقدَّمه مِن الزَّمان دون التنصيص على القريب منه[3]. وفي إضافةِ القبل إلى ضمير قارون تنبيهٌ له أنَّ هذه القبلية منسوبةٌ إليك ومعاينةٌ لديك ومشاهدةٌ عندك، فما بالك لا ترعوي ولا تعود؟.

سرُّ التعبير بالجارِّ والمجرور المتوسِّطين:

بيانُ المتقدّمين الهالكين زيادةٌ في التخويف للمستكبرين

عبر النظم الجليل بالجار والمجرور مرةً أخرى في قوله تعالى ﴿مِنَ ٱلۡقُرُونِ﴾ بعد أن عبر بهما في قوله: ﴿مِن قَبۡلِهِۦ﴾ للدلالة على بيان تلك القبلية، التي تصدق ببعضٍ غير معين، فأراد النظم بيانها واستغراقها، وأنها ممتدة إلى قرون متطاولة على سبيل العموم والشمول، وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ إهلاك الطغاة سنةٌ قديمة، وعادةٌ

(1) سيبويه، الكتاب: 4/ 224، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 459، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 75.
(2) السامرائي، معاني النحو: 2/ 200.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 355.

للّه تعالى جارية، فليتّعظ بها المستكبرون، وينتفعْ بالتذكير بها العصاةُ والفاسقون.

معنى (أل) في: ﴿ٱلْقُرُونِ﴾:

المناسبُ لمقامِ التحذير إرادةُ العموم والشمول

(أل) في قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلْقُرُونِ﴾ هي للاستغراق، لصحَّة وضع (كلّ) محلَّها؛ أي: أهلك من قبله مِن كلِّ قرنٍ وينصرفُ إلى الظالمين دونَ غيرهم عُرفًا، ويصحُّ أن تكون للعهد الذِّهنيّ الصّادق بالبعض؛ أي: القرون التي طغت وكفرت بأنعُمِ اللّه، واستوجبتِ النِّقمةَ واستنزلتِ العذاب. ويترجّحُ المعنى الأوّل؛ لأنَّ سنة اللّه تعالى جرتْ على إهلاك المستكبرين في كلِّ قرن وعصر، كما أنَّ دخول (أل) على الجمع دالٌّ على العموم والاستغراق، ويختص بالظالمين بقرينةٍ خارجيّة.

نكتة التَّعبير بالموصول وصلته:

لا عظيمَ ولا كبيرَ أمامَ عظمةِ الله وسطوتِه

أوثر التَّعبير عن الهالكين بالموصول وصِلَته في قوله تعالى: ﴿مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً﴾ لبيانِ الوصف الذي تضمَّنته جملةُ الصِّلة، وهو تفوّقُهم على قارون في القوَّة، والزِّيادة عنه في الجمع للمال؛ أي: إنَّ أهل القرون السّابقين من الهالكينَ كانوا متفوّقين على قارون في أنواع القوَّة المادِّيَّة والمعنويَّة؛ فلمْ تعصمْها مِن أمر اللّه إذْ جاءها بأسُه، أفتعصِمُ قارونَ أموالُه وكنوزُه وقوّتُه؟!

نكتة التَّصريح بالمسند إليه في جملة الصّلة:

تعيينُ الهالكين زمانًا وشخصًا رادعٌ لهم

صرّح النظم الكريم بالضَّمير المنفصل الواقعِ مبتدأً في جملة الصّلة من قوله تعالى: ﴿مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً﴾ لتقوية المعنى ببيان أنَّ الذي وقع عليه الإهلاك هو نفسه المتَّصف بالأشدِّ قوة وجمعًا من قارون، ولو حذفه جازَ كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ﴾ [مريم: 69] أي: الذي هو أشدُّ. ولعلَّ ذِكْرَ المسنَد إليه هنا؛ لأنّ الخطاب في الدنيا وما يجري للهالكين فيها، فاحتاج إلى

تعيينٍ وبيانٍ للمحكوم عليه بالتنصيص عليه والذكر له، كما وضَّح الهالكين زمانًا بقوله: ﴿مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ﴾، فناسبَ التعيينُ التعيينَ، بخلاف آية التعذيبِ في الآخرة، فلا تحتاجُ إلى تعيينٍ وبيانٍ للمحكوم عليه؛ بل الحاجة إلى تعيين الماكثين فيها وهم الموصوفون بالأشدّية عتوًّا على الله تعالى.

دلالةُ التعبير بالجارّ والمجرور الأخيرين:

هوانُ قارون عند مقارنته بغيره درسٌ بليغ

عبر النظم الجليل بالجار والمجرور مرة أخرى في قوله تعالى: ﴿أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً﴾ والمتكون من (مِن) الموضوعة للدَّلالة على ابتداء الغاية من حيث إنَّه قد جعل قارونَ - بماله وقوَّته وزينته... إلخ - كالموضع الذي ابتدأ منه ارتفاعُ غيره عليه، فزاد عليه في المال، واشتدَّ عنه في القوَّة، وفي ذلك درسٌ بليغ في هوان قارونَ وضعفِه؛ إذ هو مكانٌ تبتدئُ منه قوّةُ غيره عليه، فلا قيمةَ لماله وعلمِه وذكائه مقارنةً بنفوذِ غيره.

دلالةُ التمييز بـ﴿قُوَّةً﴾:

تحديدُ الأشدّيَّة موجبٌ للتواضع

ورد التمييز بـ﴿قُوَّةً﴾ في قوله تعالى: ﴿أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً﴾ الدالُّ على وجود الإبهام في النّسبة، إذ يأتي التمييزُ لرفع ذلك الإبهام عنها بالبيان والتوضيح، إذ الأشديَّةُ تحتملَ التحقُّقَ بمُمَيِّزات متعدِّدة، لكنَّ النظم أفصحَ عن تلك الأشديَّة بلفظ (القوة) وما تتضمنه من دلالات المنعة والعزّة والهيبة وغيرها، ومع ذلك فإنها عاجزةٌ أمام عظمة الله تعالى وقدرته، ومن ثمَّ يجب على السّامعين لهذا الخطاب أنْ يتواضعوا أمامَ تلك القدرة، ويستشعروا دوامَ فضلها بالشُّكر الجزيل.

نكتةُ عطف الأكثريّة على الأشديَّة:

لا قـوّةَ معنويّةً ولا أكثريةَ ماديّةً تقفُ أمامَ عظمةِ الله

عطف النظم قولَه تعالى: ﴿وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ على ﴿أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً﴾ للجمع بين العرَضَين: الكيفيِّ والكميّ؛ إذ القوَّة: ما بها يُستعان على الأعمال الصَّعبة؛ تشبيهًا لها بقوَّة الجسم التي تخوِّل صاحبَها حملَ

الأثقال ونحوها، والجمعُ: الجمُّ الغفير من الرّجال والمال والعيال. فقوله تعالى: ﴿مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً﴾؛ أي: في الكيف من العلْم والذكاء والتجربة والخبرة، إذ القوةُ من المعاني والأعراض التي تتفاوتُ بالأشدّيَّة والضّعف، فنقول: قوةٌ شديدةٌ وقوة ضعيفةٌ، ولا نقول: كثيرة أو قليلة؛ لأنَّ (القوة) كيفٌ وحدتُهُ الشدَّة والضّعفُ. وأما قوله: ﴿وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾؛ يعني: في المال والرِّجال، إذ الجمعُ مما تعرض عليه الكميات، التي تتفاوتُ بالأكثريَّة والأقليّة، فنقول: جمع كثير وجمع قليل؛ ولا نقول: جمعٌ شديد ولا ضعيف؛ لأنَّ (الجمع) معدود معروضٌ للكمّ، ووحدته الكثرة والقلّة. والمقصود بهذا العطف: تهديد قارون وتوبيخه على غروره وبَطَرِه[1]؛ إذِ السّابقون له كانوا متفوّقين عليه كَمًّا وكيفًا، ومع ذلك أهلَكَهم اللّه تعالى وعذَّبهم في الدنيا والآخرة.

سرُّ تكرار التمييز في الآية:

البيانُ للأكثريّة موجِبٌ للتواضُع والشُّكر

عبَّر النظم الكريم بتكرارِ التمييز في قوله تعالى: ﴿وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ للدلالةِ على أنَّ الأكثريّةَ المبهمةَ وُضِّحت بالجمع الوفير؛ الشّامل للرّجال والأموال والأعوان، ومع ذلك كلِّه فإن اللّه أهلكَهم وعذَّبهم لغرورهم وجحودِهم.

دلالةُ الوصل في قوله: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ﴾:

لا سـؤالَ للمجرمين عندَ الإهلاك المبين

(الواوُ) في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ استئنافيَّة، وليست عاطفةً لجملتها على جملةِ أنَّ اللّه قد أهلك من قبله من القرون[2].

وهذا الاستئنافُ جعل الجملة التي دخلت عليها (الواو) تذييلًا جاريًا مجرى المثل؛ لاستقلاله بأداء المعنى دون افتقاره إلى غيره.

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 10/ 438.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 182.

والغرضُ من الاستئناف إظهارُ كمالِ عظمة الله تعالى وانتقامِه بنفيِ سؤالِ المجرمينَ عن ذنوبهم قبل استئصالِهم وإهلاكِهم؛ لأنَّ الإجرام صار شأنَهم وسجيّتَهم، فلم يعُد السؤالُ مُجديًا، بل التدمير والانتقام والإهلاك هو الحلُّ الناجعُ معهم.

نكتةُ بناء الفعل ﴿يُسْـَٔلُ﴾ للمفعول:

عـدم الـجـدوى مـن الـسـؤال مـغـنـيـة عـن الإظهار

أوثر بناء الفعل ﴿يُسْـَٔلُ﴾ للمفعولِ في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ للاهتمام بنفيِ فعل السُّؤال نفسه بقطع النَّظر عن الفاعل، فقوله تعالى: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ﴾؛ "أي: مِن سائلٍ مّا"[1]؛ توكيدًا للنَّفي بتعميمِه من جميع الفاعلين، كما يكشفُ الحذف للفاعل أنَّ العادة جاريةٌ بعدم سؤال المجرمين عن ذنوبهم؛ لكثرتها ووضوحها، حتى إنّه تنعدم الجدوى، ويضيعُ الغرضُ من السّؤال وفائدتِه.

بلاغةُ الكناية في الآية:

حرمانُ المجرمين من السُّؤال جزءٌ من العذاب

نفيُ السُّؤال عن الذُّنوب للمبالغينَ في الإجرام كنايةٌ عن الظّهور والوضوح لتلك الذنوب ظهورًا ووضوحًا مُغنيًا عن السُّؤال والاستعتاب؛ إذ صاحبُ الذنب القليل يُعاتَبُ ويُسأل عن سبب اقترافِه الذنب، وأمّا مَن اشتهر بالذنوب وأحاطتْ به الخطايا فيُحرم من السّؤال قبل نزول العقاب؛ لأنه جزءٌ من العقاب العظيم. كما أن الكنايةَ دالّةٌ على إحاطة علم الله تعالى بذنوبِ المجرمين، ونزولِ العقاب بهم لتفنُّنِهم بالإجرام وطرقه، مع التهديد لهم ليكونوا على حذرٍ من أن يُؤخذوا بغتةً[2].

معنى ﴿عَن﴾ في قوله: ﴿عَن ذُنُوبِهِمُ﴾:

كـمـالُ الـعـقـاب عـدمُ الالـتـفـات إلـى الـمـعـاقـبـيـن بالسُّؤال

ورد النظم الكريم باستعمال ﴿عَن﴾ الموضوعة أصالةً للدَّلالة على البُعد والمجاوَزَة[3] في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ﴾ لجعل

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 355.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 182.
(3) سيبويه، الكتاب: 4/ 226، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 500، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 54.

السُّؤال في موضع متجاوزٍ محلَّ الذُّنوب، فيكون نفيُ ذلك مُؤذنًا بنفي التَّجاوزِ عنهم، ودلالةً على أنّهم إنْ لم يُسألوا عن ذنوبهم الصّادرة منهم، فإنّهم لن يُسألوا عن أيِّ شيء ممّا عداه، وفي ذلك تهوينٌ لشأنهم وتفنيدٌ لغرورهم وتكبُّرهم على الحقّ تعالى.

نكتةُ الإضافة في: ﴿ذُنُوبِهِمُ﴾:

انفرادُ المجرمين بـذنـوبٍ سمةٌ بارزةٌ فيهم

أضافَ النظمُ الجليل الذنوبَ إلى ضمير المجرمين في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ العائدِ إلى المجرمينَ المتأخّر لفظًا المتقدّم رتبة؛ للدّلالة على الاختصاص بذنوبٍ عُرفوا بها وتميّزوا عن غيرهم من المذنبين بها، وكان لجمعِ (الذنوب) تصريحٌ بشناعة ما يفعلونَ من آثامٍ كثيرة. أوْ يكون الذنبُ الكبير قائمًا مقامَ ذنوبٍ كثيرة بناءً على إرادة التوزيع، وأفادَ التَّقييد بالإضافة إليهم أنّهم لا يُسألون عن ذنوبهم التي اقترفوها سؤالَ استعلام، وإنَّما يُحاسَبون ويُعاقَبون عليها بغتةً دون استعلام ولا استعتاب. وقيل: إنَّ ضمير ﴿ذُنُوبِهِمُ﴾ لِمَنْ هوَ أشَدُّ قوَّةً منهم، أي: ولا يُسأل عن ذنوب أولئك المُهلَكين غيرُهم ممَّن أجرمَ، ويعلمُ أنَّه لا يُسأل عن ذنوبهم مَن لم يُجرم بالأوْلى، لما بين الصِّنفين مِن العداوة. ومآل المعنى: لا يُسأل عن ذنوب المُهلَكين المعذّبين غيرُهم ممَّن أجرم وممَّن لم يُجرِمْ؛ إذ قد بالغوا في الذنوب حتى لا يكونُ للسّؤال قيمةٌ، ولا يستأهلونُ السؤالَ الدالَّ على التقدير والاحترام.

نكتة تقديم الجارّ والمجرور:

الاعتناء بالمتقدّم وتـجـلـيـتـه، ووصـمُ المتأخّر بـالـذَّنـب بعد الـتَّـشـويـق لمعرفته

قُدِّم الجارُّ والمجرور: ﴿عَن ذُنُوبِهِمُ﴾ على نائب الفاعل ﴿ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ للاعتناء بالمسؤولِ عنه أكثرَ من المسؤول، وشأنُ تأخيرِ المسؤولِ عن المسؤول عنه فيه تشويق لمعرفته، فإذا ذُكر وقع من النَّفس موقعه، وتمكَّن منها غاية التَّمكُّن. وفيه إظهارٌ لهوانِ أمرِ المجرمين المتكبّرين

بقوّتِهم وأموالهم، حتى إنهم تأخَّروا عن المسؤول عنه، مع أنهم كانوا مغترّين بأفعالهم ظانّين أنهم بكِبْرهم وبطَرهم الحقَّ متقدِّمين على سائر الخلق، فأُخِّروا بالذكر إظهارًا لهوانهم حتى إنَّ المسؤولَ عنه كان أهمَّ منهم ذِكْرًا.

معنى (أل) في: ﴿ٱلْمُجْرِمُونَ﴾:

تعليلُ عدم السّؤال بشدَّة الإجرام

(أل) في قوله تعالى: ﴿ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ اسم موصول دالٌّ على الاستغراق والعموم لكلِّ مَن يَصْدُق عليه الوصف؛ وفيه تهديدٌ لكافَّة المجرمين حتى لا يجعل المخاطَبُ نفسَه بمنأى عن ذلك التَّهديد. كما دلَّ الموصول بصلتِه على علَّة عدمِ السُّؤال عن الذنوب، بأنهم قد دخلوا في عالم الإجرام دخولًا عظيمًا؛ فلا سؤالَ لهم عن تلك الذنوب التي اقترفوها؛ لِفَرْط إجرامهم وعتوِّهم على الحقّ تعالى.

بلاغة الإطناب في الآية:

التّذييل للتّهديد، ولتأكيد الوعيد

جملةُ: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ تذييلٌ للكلام السّابق، فهو استئناف وليس عطفًا على أنَّ الله قد أهلك مَن قبلَه[1]. ووجهُ اتّصاله بما قبله هو أنَّه لمّا ذُكِّر قارونُ بمَن أُهلِك مِن قبله مِن القرون الّذين كانوا أقوى منه وأغنى، قيل له على سبيل التَّهديد والوعيد: والله مطَّلع على ذنوب المجرمين، لا يحتاجُ إلى سؤالهم عنها واستعلامِهم، وهو قادرٌ على أن يعاقبَهم عليها[2]. وفيه تهديدٌ ووعيدٌ بأنَّ ذلك الإهلاك كان مُباغتًا لم يسبقْه سؤالٌ ولا عتابٌ ولا نقاش، فليرتدعِ الطُّغاة بالآيات البيّنات قبل أنْ يأتيَهم العذابُ بغتةً وهم لا يَشعرون.

توجيه التَّعارض الظّاهريّ:

في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ نفيٌ للسُّؤال

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 182.
(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 432.

للمجرمين والعصاة عن ذنوبهم، في حين أنَّ في قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الحجر 92 - 93] إثباتًا له، فنشأ عن ذلك تعارض ظاهريٌّ بين الآيتين، والإجابةُ عن هذا التَّعارض الظّاهر تكون من ثلاثةِ أوجه[1]:

لا يُسألون سؤالَ استخبارٍ واستعلام، بل سؤالُ تقريعٍ وإيلام

الوجه الأوَّل: أنَّ السُّؤال قسمانِ: سؤال توبيخ وتقريع، وأداته غالبًا (لِمَ)، وسؤالُ استخبار واستعلام، وأداته غالبًا (هل)، فالمثبَت هو سؤال التَّوبيخ والتَّقريع، والمنفيُّ هو سؤال الاستخبار والاستعلام، ونفي ذلك بالنسبة إلى الله ﷻ ظاهر؛ إذ هو المحيط بكلِّ شيء علمًا، وأمّا بالنِّسبة إلى الملائكة ﷺ فلأنَّهم مطَّلعون على صحائفِ المجرمين، أوْ لأنَّهم يعرفون المجرمينَ بسيماهم، فيأخذونَهم دون أنْ يسألوهم، كما قال سبحانه: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾﴾ [الرحمن: 41].

الوجه الثاني: أنَّ في القيامة مواقفَ متعدِّدةً، ففي بعضها يُسألون، كما قال سبحانه: ﴿وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الصافات: 24] وفي بعضها لا يُسألون، كما قال جلَّ شأنه: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾﴾ [الرحمن: 39]، ومواقفُ يوم القيامة كثيرةٌ ومتعدّدة.

الوجه الثالث: أنَّ السُّؤال المنفيَّ هو السُّؤالُ في الدُّنيا قبل نزول العذاب بهم بغتةً، والسُّؤال المثبَت هو سؤالُ الآخرة بالحسابِ والتقريعِ والفضحِ أمامَ الخلائق.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإهلاك والإفناء:

الإهلاكُ يكون بنقض البِنيَة أوْ تكسيرها، سواءٌ أُعدِم وفَني أم لا[2]. وأما الإفناء: فهو إعدامُ الشَّيء جملةً، سواءٌ بفقد النَّفع الأساسيّ

الإهلاكُ يكون بنقض البِنيَة بخلافِ الإفناء

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 182، والشنقيطي، دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، ص: 143.
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 104، 105، وابن فارس، مقاييس اللغة: (هلك).

للشَّيء، أوْ فقدِ الشَّيء نفسِه[1]. والملاحَظ في الإهلاك معنى النَّقض والتَّكسير المناسب لموقف العذاب؛ لأنَّ العذاب بالإهلاك لا يكون إفناءً وإعدامًا جملةً واحدة.

القوَّة والشِّدَّة:

الـقـوَّة توصـفُ بـالـشـدَّة دون العكس

الشِّدة في الأصل هي مبالغةٌ في وصف الشَّيء من حيثُ الصَّلابة والقوّة، وليست من قبيلِ القُدرَة[2]. وأما القوَّة فهي من قبيل القدرة[3]، ولهذا لا يقال: اللّه شديدٌ، ولكن يقال كما في القرآن: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: 58]؛ أي: العظيم الشَّأن في القوَّة[4]. فيكون الملاحَظ في الوصف بالشِّدة المبالغةُ في الشَّيء مع صلابةٍ فيه، وأصلُه من العقد القويّ[5]، من غير أن يكونَ من قبيل القدرة، كما في وصف الجمادات التي لا قدرةَ لها بالشِّدة. ويكون الملاحَظ في معنى القوَّة كونَه من قبيل القدرة، ثمَّ قد توصف القوَّة بالشِّدَّة على سبيل المبالغة في معنى القدرة، كما في قوله تعالى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾﴾ [النجم: 5] وهو جبريل عليه السلام، فيكون بمعنى: عظيم القدرة[6]، فالقوةُ توصفُ بالشدَّة دونَ العكس.

الجمع والحشر:

الحشر جمعٌ مع سـوقٍ وإزعـاج، بخلاف الجمع

الفرقُ بين (الجمع والحشر) أنَّ الحشر هو إخراجُ جماعة عن مقرِّهم مع سَوْقٍ، وإزعاجُهم عن مقرِّهم إلى حرب ونحوها، كما في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [الشعراء: 36]؛ أي: ابعث من يجمع السَّحَرة، ويسوقُهم إليك[7]. وأما (الجمع)

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 104، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (فني).
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 107، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (شدد).
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 107، والراغب، المفردات: (قوي).
(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 107.
(5) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (شدد).
(6) الراغب، المفردات: (شدد).
(7) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 144، والراغب، المفردات: (حشر).

فهو ضمُّ الشَّيء بتقريب بعضه إلى بعض[1]. ولا يقال الحشرُ إلا في الجماعة، ولا يكون الحشرُ إلا بسَوْقٍ، ولا يقالُ إلا فيما يصحُّ فيه السَّوق، بخلاف الجمع[2]. ولهذا كان الأنسب استعمالَ الجمع فيما كان من جمع المال والأنصار والأعوان.

القرن والأمّة:

القرن أخصّ من الأمة مطلقًا

القرنُ: القومُ المقترنون في زمن واحد، وكلُّ جماعة مقترِنة في وقت واحد فهي قَرْن[3]. وغالب ما يقع اسم القرن على من يكون من النّاس في مُدَّة سبعين سنة[4]. والأمَّة: الجماعةُ من النّاس يجمعهم أمرٌ مّا سواء كان دينًا أو زمانًا أوْ مكانًا واحدًا، وسواء كان هذا الجمعُ اختياريًّا أم قهريًّا[5].

(1) الراغب، المفردات: (جمع).
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 144، والراغب، المفردات: (حشر).
(3) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (قرن)، وعبد الجبار فتحي زيدان، الفروق اللغوية في القرآن: 734.
(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 279.
(5) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (أمم).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الحادي والأربعون،
سورة القصص من الآية 21 إلى سورة العنكبوت الآية 03
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الحادي والأربعون، سورة القصص من الآية 21 إلى سورة العنكبوت الآية 03
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 41 ، 812 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-92-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 41 : المجلد الحادي والأربعون، سورة القصص من الآية 21 إلى سورة العنكبوت الآية 03.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-92-1
*
إذن طباعة رقم:MC-03-01-2914887 بتاريخ 2024/12/16م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»